تفسير إبن كثير

* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

وقوله : (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) أي : صرفكم عنهم (إذ تصعدون) أي : في الجبل هاربين من أعدائكم .وقرأ الحسن وقتادة : (إذ تصعدون) أي : في الجبل (ولا تلوون على أحد) أي : وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب (والرسول يدعوكم في أخراكم) أي : وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة .قال السدي : لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها ، وجعل الرسول صلى االله عليه وسلم يدعو الناس : " إلي عباد االله ، إلي عباد االله " . فذكر االله صعودهم على الجبل ، ثم ذكر دعاء النبي صلى االله عليه وسلم إياهم فقال : (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) .وكذا قال ابن عباس ، وقتادة والربيع ، وابن زيد .وقد قال عبد االله بن الزبعرى يذكر هزيمة

المسلمين يوم أحد في قصيدته - وهو مشرك بعد لم يسلم - التي يقول في أولها :يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فعل إن للخير وللشر مدبوكلا ذلك وجه وقبلإلى أن قال :ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسلحين حكت بقباء بركها واستحر القتل في عبد الأشلثم خفوا عند ذاكم رقصا رقص الحفان يعلو في الجبلفقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدلالحفان : صغار النعم .وقد كان النبي صلى االله عليه وسلم قد أفرد في اثني عشر رجلا من أصحابه ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال : جعل رسول االله صلى االله عليه وسلم على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلا - عبد االله بن جبير قال : ووضعهم موضعا وقال : " إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم قال : فهزموهم . قال : فأنا واالله رأيت النساء يشتددن على الجبل ، وقد بدت أسؤقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد االله : الغنيمة ، أي قوم ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ قال عبد االله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول االله صلى االله عليه وسلم ؟ فقالوا : إنا واالله

لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة . فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ، فلم يبق مع رسول االله صلى االله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا فأصابوا منا سبعين ، وكان رسول االله صلى االله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة : سبعين أسيرا وسبعين قتيلا . قال أبو سفيان : أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ - ثلاثا - قال : فنهاهم رسول االله صلى االله عليه وسلم أن يجيبوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا ، قد كفيتموه . فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت واالله يا عدو االله ، إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسوءك . فقال يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز ، يقول : اعل هبل . اعل هبل . فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " ألا تجيبوه ؟ " قالوا : يا رسول االله ، ما نقول ؟ قال : " قولوا : االله أعلى وأجل " . قال : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " ألا تجيبوه ؟ " . قالوا : يا رسول االله ، وما نقول ؟ قال : "

قولوا : االله مولانا ولا مولى لكم " .وقد رواه البخاري من حديث زهير بن معاوية مختصرا ، ورواه من حديث إسرائيل ، عن أبي إسحاق بأبسط من هذا ، كما تقدم . واالله أعلم

.وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزية ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : انهزم الناس عن رسول االله صلى االله عليه وسلم يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار ، وطلحة بن عبيد االله وهو يصعد الجبل ، فلقيهم المشركون ، فقال : " ألا أحد لهؤلاء ؟ " فقال طلحة : أنا يا رسول االله ، فقال : " كما أنت يا طلحة " . فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول االله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول االله صلى االله عليه وسلم ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصاري فلحقوه فقال : " ألا رجل لهؤلاء ؟ " فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول االله ، فقاتل عنه وأصحابه يصعدن ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، فيقول طلحة : فأنا يا رسول االله ، فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " من لهؤلاء ؟ " فقال طلحة : أنا . فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله

وأصيبت أنامله ، فقال : حس ، فقال رسول االله : " لو قلت : باسم االله ، وذكرت اسم االله ، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك ، حتى تلج بك في جو السماء " ، ثم صعد رسول االله صلى االله عليه وسلم إلى أصحابه وهم مجتمعون .وقد روى البخاري ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع ، عن إسماعيل ، عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى االله عليه وسلم - يعني يوم أحد .وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول االله صلى االله عليه وسلم في بعض تلك الأيام ، التي قاتل فيهن رسول االله صلى االله عليه وسلم غير طلحة بن عبيد االله وسعد ، عن حديثهما وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك ، أن رسول االله صلى االله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : " من يردهم عنا وله الجنة - أو : وهو رفيقي في الجنة ؟ " فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا ، فقال : " من يردهم عنا وله الجنة ؟ " فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم لصاحبيه : ما أنصفنا أصحابنا " .رواه

مسلم عن هدبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة به نحوه .وقال الحسن بن عرفة : حدثنا ابن مروان بن معاوية ، عن هاشم بن هاشم الزهري ، قال سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت سعد بن أبي وقاص [رضي االله عنه] يقول : نثل لي رسول االله صلى االله عليه وسلم كنانته يوم أحد قال : " ارم فداك أبي وأمي " .وأخرجه البخاري ، عن عبد االله بن محمد ، عن مروان بن معاوية .وقال محمد بن إسحاق حدثني صالح بن كيسان ، عن بعض آل سعد ، عن سعد بن أبي وقاص ، أنه رمى يوم أحد دون رسول االله صلى االله عليه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيت رسول االله صلى االله عليه وسلم يناولني النبل ويقول : " ارم فداك أبي وأمي " حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل ، فأرمي به .وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه ، عن جده ، عن سعد بن أبي وقاص قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبي صلى االله عليه وسلم وعن يساره رجلين ، عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عنه أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني : جبريل وميكائيل عليهما السلام .وقال أبو الأسود ، عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف ، أخو بني جمح ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول االله صلى االله عليه وسلم ، فلما بلغت رسول االله صلى

االله عليه وسلم حلفته قال : " بل أنا أقتله ، إن شاء االله " . فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعا ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد . فحمل على رسول االله صلى االله عليه وسلم يريد قتله ، فاستقبله مصعب بن عمير ، أخو بني عبد الدار ، يقي رسول االله صلى االله عليه وسلم بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول االله صلى االله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته ، فوقع إلى الأرض عن فرسه ، لم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول االله صلى االله عليه وسلم : " أنا أقتل أبيا " . ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون . فمات إلى النار ، فسحقا لأصحاب السعير .وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب بنحوه .وذكر محمد بن إسحاق قال : لما أسند رسول االله صلى االله عليه وسلم في الشعب ، أدركه أبي بن خلف وهو يقول : لا نجوت إن نجوت ، فقال القوم : يا رسول االله ، يعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " دعوه " فلما دنا تناول رسول االله [صلى االله عليه وسلم]

الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم ما ذكر لي : فلما أخذها رسول االله صلى االله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضة ، تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله رسول االله صلى االله عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا .وذكر الواقدي ، عن يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن عبد االله بن كعب بن مالك ، عن أبيه نحو ذلك .قال الواقدي : كان ابن عمر يقول : مات أبي بن خلف ببطن رابغ ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل إذا أنا بنار تأجج فهبتها ، فإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يهيج به العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول االله صلى االله عليه وسلم ، هذا أبي بن خلف .وثبت في الصحيحين ، من رواية عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة رضي االله عنه ، قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " اشتد غضب االله على قوم فعلوا برسول االله - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - اشتد غضب االله على رجل يقتله رسول االله صلى االله عليه وسلم في سبيل االله " .ورواه البخاري أيضا من حديث ابن جريج ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : اشتد غضب االله

على من قتله رسول االله صلى االله عليه وسلم بيده في سبيل االله ، اشتد غضب االله على قوم دموا وجه رسول االله صلى االله عليه وسلم . وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، رحمه االله : أصيبت رباعية رسول االله صلى االله عليه وسلم وشج في وجنته ، وكلمت شفته وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص .فحدثني صالح بن كيسان ، عمن حدثه ، عن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص وإن كان ما علمته لسيئ الخلق ، مبغضا في قومه ، ولقد كفاني فيه قول رسول االله صلى االله عليه وسلم : " اشتد غضب االله على من دمى وجه رسول االله صلى االله عليه وسلم " .وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهري ، عن عثمان الجزري ، عن مقسم ، أن رسول االله صلى االله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمى وجهه فقال : " اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافرا " . فما حال عليه الحول حتى مات كافرا إلى النار .ذكر الواقدي عن ابن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد االله بن أبي فروة ، عن أبي الحويرث ، عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ، ورسول االله صلى

االله عليه وسلم وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد االله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا ، ورسول االله صلى االله عليه وسلم إلى جنبه ليس معه أحد ، ثم جاوره فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال : واالله ما رأيته ، أحلف باالله إنه منا ممنوع . خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك .قال الواقدي : الثبت عندنا أن الذي رمى في وجنتي رسول االله صلى االله عليه وسلم ابن قميئة والذي دمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص .وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا ابن المبارك ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد االله ، أخبرني عيسى بن طلحة ، عن أم المؤمنين عائشة ، رضي االله عنها ، قالت : كان أبو بكر ، رضي االله عنه ، إذا ذكر يوم أحد قال ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلا يقاتل مع رسول االله صلى االله عليه وسلم دونه - وأراه قال : حمية فقال فقلت : كن طلحة ، حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلا من قومي أحب إلي ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول االله صلى االله عليه وسلم منه ، وهو يخطف المشي خطفا لا أحفظه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى

رسول االله صلى االله عليه وسلم : وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " عليكما صاحبكما " . يريد طلحة ، وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأن أنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني . فتركته ، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي النبي صلى االله عليه وسلم ، فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، ذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة ، رضي االله عنه ، أحسن الناس هتما ، فأصلحنا من شأن رسول االله صلى االله عليه وسلم ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه .ورواه الهيثم بن كليب ، والطبراني ، من حديث إسحاق بن يحيى به . وعند الهيثم : فقال أبو عبيدة : أنشدك يا أبا بكر إلا تركتني ؟ فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه ، فجعل ينضنضه كراهية أن يؤذي رسول االله صلى االله عليه وسلم ، ثم استل السهم بفيه فبدرت ثنية أبي عبيدة .وذكر تمامه ،

واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه ، وقد ضعف علي بن المديني هذا الحديث من جهة إسحاق بن يحيى هذا ، فإنه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان ، وأحمد ، ويحيى بن معين ، والبخاري ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، ومحمد بن سعد ، والنسائي وغيرهم .وقال ابن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث : أن عمر بن السائب حدثه : أنه بلغه أن مالكا أبا [أبي] سعيد الخدري لما جرح النبي صلى االله عليه وسلم يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض ، فقيل له : مجه . فقال : لا واالله لا أمجه أبدا . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي صلى االله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى هذا " فاستشهد .وقد ثبت في الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه ، عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول االله صلى االله عليه وسلم فقال : جرح وجه رسول االله صلى االله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، فكانت فاطمة بنت رسول االله صلى االله عليه وسلم تغسل الدم ، وكان علي يسكب عليها بالمجن فلما رأت فاطمة [رضي االله عنها] أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعة حصير فأحرقته ، حتى إذا صار رمادا ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدم .وقوله : (فأثابكم غما بغم) أي :

فجازاكم غما على غم كما تقول العرب : نزلت ببني فلان ، ونزلت على بني فلان .قال ابن جرير : وكذا قوله : (ولأصلبنكم في جذوع النخل) [طه : 71] [أي : على جذوع النخل] .قال ابن عباس : الغم الأول : بسبب الهزيمة ، وحين قيل : قتل محمد صلى االله عليه وسلم ، والثاني : حين علاهم المشركون فوق الجبل ، وقال النبي صلى االله عليه وسلم : " اللهم ليس لهم أن يعلونا " .وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأول : بسبب الهزيمة ، والثاني : حين قيل : قتل محمد صلى االله عليه وسلم ، كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة .رواهما ابن مردويه ، وروي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك . وذكر ابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضا .وقال السدي : الغم الأول : بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والثاني : بإشراف العدو عليهم .وقال محمد بن إسحاق (فأثابكم غما بغم) أي : كربا بعد كرب ، قتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول من قال : " قتل نبيكم " فكان ذلك متتابعا عليكم غما بغم .وقال مجاهد وقتادة : الغم الأول : سماعهم قتل محمد ، والثاني : ما أصابهم من القتل والجراح . وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه .وعن السدي : الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثاني : إشراف

العدو عليهم ، وقد تقدم هذا عن السدي .قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : (فأثابكم غما بغم) فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان االله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ - بعد الذي أراكم في كل ذلك ما تحبون - بمعصيتكم ربكم ، وخلافكم أمر النبي صلى االله عليه وسلم - غم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم .وقوله : (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) أي : على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم (ولا ما أصابكم) من القتل والجراح ، قاله ابن عباس ، وعبد الرحمن بن عوف ، والحسن ، وقتادة ، والسدي (واالله خبير بما تعملون) .